تحية الرسالة

في صباح عيدها الثامن

للأستاذ محمود الخفيف

صباحك سنبل أحلامها ... وجدد يا عيد أيامها
صباح تهلل في المشرقين ... وضيء الأسرة بسامها
على جانبيه ترفُّ المنى ... وقد فتق البشر آكامها
وتنفق أهازيجه الضاحكات ... كروب الحياة وأوهامها
تهز الفراقين أصداؤها ... وإن من النيل إفهامها
تجاوب بغداد هذا الغناء ... وكم عشقت مصر أنغامها
وكم هزت الكونَ دارُ الرشيد ... وأسمعت الدهر ترنامها
تحمّلها ودها جلّقٌ ... وقد عودت مصر إعظامها
وكم بعثت من رُباها الهتاف ... فجيت على النيل أهراءها
تخائلُ لبنان تهفو لها ... ويستروحُ القدس أنسامها
لها منهما اللمحاتُ الوضاء ... إذا استلهم الرأيُ أفهامها
ويصبو الحجازُ وكم طاف منه ... خيالٌ يساور أحلامها
ويزجي الأغاريد سودانُ مصر ... ويختصُّ بالودّ أعلامها
تهش لألحانه الغانيات ... وتعزو إلى الحبّ إحكامها

* * *

تلقّى الرسالة في المشرقين ... بلادٌ توشّج أرحامها
تلاق على الضاد أبناؤها ... وإن فرّق الملك أقوامها
لها الشرق إما مضت موطناً ... ويهوى بنو الشرق إكرامها
يطوف به إذ تُلِمُّ اليقين ... فإن من الرُّوح إلمامها
يحبُّ تسامحها كل حُرّ ... وما انفكّ يكبرُ إسلامها
يَدين بثِرعتها في الجهاد ... ويعلي عن الشك أحكامها
ألم يَرَ ماضيَها العبقريّ ... وقد أرهف الحق أقلامها ؟
ويَسْلُ عزيمتها في الأمور ... إذا استعجل العصر إبرامها ؟
وكيف مشت تستحث النفوس ... وتكشف في الشرق أسقامها ؟
تعلمها كيف تأبى الهوان ... وترغم من رام إرغامها
تروض على البأس في قولها ... شبول البلاد وآرامها
وكم بدعة ساقها المبطلون ... فراحت تحطم أصنامها
غداً يحتمي ببنيها الذمار ... كما حمتِ الأسد آجامها

* * *

تجدد في العيد عهد الوفاء ... وقد سحب الصدق أقسامها
إذا أبهمت في الخلاف الأمور ... جلت بالصراحة إبهامها
ويعجزُ عن حلمها شانئ ... يحاولُ باللين إيلامها
وتقدم لكنها في الحياة ... تربك عن الهجر إحجامها
لها صفحة في سجل الخلود ... تعاجز في الشرق من راسها

* * *

تنزه شعري فلم أزجه ... رخيص المدائح نمامها
وما اهتز يوماً لغير العلى ... فغني هداها وإلهامها
عرفت علاها فغنّيتها ... وحليتُ بالدُّرّ أعوامها
بدأت لها أمس غالي العقود ... ولن أبلغ الدهرَ إتمامها

وصف ديك

للأستاذ عبد الرءوف جمعة

وديك كأن الشمس يسطع ضوؤها
عليه بألوان ترفّ وتزهر
على رأسه المرجان تاجاً يزينه
ومنقاره العقيان أو هو أنضر
على جيده فُوفٌ من الخز لامع .
كمثل ضياء الشمس في الصبح أصفر
وعيناه أصفى من مُدام ابن هانئ
ومن طَل نيسان من الورد يقطر
إذا صاح في جوف الدياجي حسبته
يقول لأهل النسك : أللهُ أكبر
وإن صاح في وجه النهار حسبته
يقول لمن ناموا : هلاّ ويزجر
أحسّ بما فيه من الحسن فازدهى
وراح بصحن الدار نشوان يخطر
ألست تراه شامخ الرأس مثلما
بنيه على الألمان عِبسٌ وهتر

صنع فى انجلترة ! . . .

جلسنا نتحدث فمال بنا الحديث فيما مال إلى مبلغ شعورنا بقوميتنا ومبلغ حرصنا على مظهرها ، ورحنا نتساءل هل نحن كرماء لضيوفنا حقاً ، أم أن فى الأمر شيئاً غير الكرم ؟ واحتدم الجدال كالمعتاد وعلت الأصوات ، وتشعب الكلام واضطرب نظامه ، وضاعت الحجج جميعاً سليمها وسقيمها فى ذلك الضجيج المتصل . وكانت أشد الدعاوى إيلاماً لنفوسنا أننا قوم نتلاشى فى غيرنا ويسهل على أى قوة أن تسوقنا حسبما تريد

وقطع هذا الضجيج دخول صديق لنا فى رفقته شاب أخذ يقدمه إلينا ، فحيا وحيينا ، ثم جلسنا برهة صامتين ، ومالت أنظارنا إلى هذا الشاب الذى بدأت معرفتنا به . وما هى إلا برهة حتى فطنت إلى أن منظارى قد وقع منه على شخصية أضيفها إلى ما عرفت من أشباهها من الشخصيات التى لا تكاد تفترق إحداها عن بقيتها فى شىء

وفى نفسى عن هذه الشخصيات التى عرفت معان استيقنتها فما أشك فيها أبداً ، بيد أنى أميل إلى تبينها فى كل شخصية منها ، فقد جرى الأمر فى ذلك عندى مجرى التسلية ، إن جاز أن فيما يؤلم ما يسلى كما جاز أن فى المصائب ما يضحك !

ونظرت فإذا صاحبنا يضطجع فى مقعده ويشمخ بأنفه ، ورأيته يضع إحدى رجليه على الأخرى أولاً ، ثم يمدهما معاً إلى حيث يستقر قدماه على مقعد خال ونعلاه قبالة الجالسين فى غير تحرج ولا استحياء . . .

وأدخل يده فى جيبه فأخرج بيبته وحشاها وأشعلها ، وراح ينفخ فى الجو من دخانه ، دون أن يشاطرنا ما أخذنا فيه من الأحاديث . وشعرت وشعر أصحابى جميعاً بهذا التكبر السخيف ، كأننا لم نكن أهلاً لمحادثته . وكيف نكون عنده أهلاً لذلك ، وليس فينا من خرج من مصر ، كما تبين له من كلامنا ؟

وكانت تختلج على شفتيه ابتسامة ليس فيها إلا معانى السخرية من عقولنا أو قل من جهلنا ، وفى نفسه أننا لا زلنا على عقليتنا الشرقية جامدين ضيق المعرفة ، وتمنيت أن يتكلم لأرى شيئاً من عقليته الغربية التى عاد بها من انجلترة . . .

ولم يطل تطلعى فلقد أخذ يجيب على سؤال وجه إليه ، فسمعت وأنا أجهد فى كتمان ضحكى عبارة بين العربية والإنجليزية ، فهى عربية الحروف انجليزية النطق ، الأمر الذى جعلها فى جلتها قردية اللهجة والجرس . . . وكانت لا تسعفه ذاكرته أو كان يتكلف أن ذاكرته لا تسعفه ببعض الألفاظ العربية ، فكان ينطق بها انجليزية ثم يشرحها لنا كأنما يثق أننا لا نفهم تلك اللغة فهمه ؛ وكان يكرر قوله : « لما كنت فى انجلترة . . . » كأنما يخشى أن ننسى أنه كان هناك ، وهو يقدم تلك الحقيقة بين يدى حججه ليجعلها بذلك قاطعة صادعة

وليته ظل ساكتاً فلقد حمدت الله بعد كلامه الطويل على عقليتى الشرقية . . . وحيا الشاب تحية نصفها شرق ونصفها غربى ، وانطلق هو وصاحبه ، والتفت إلى أحد أقرانى وقال : أرأيت الدليل المادى على صحة ما أقول ؟ وقال آخر : ما لهؤلاء لا يتكبرون ولا يزهون وقد افترضت الدولة فيهم الكفاية لمجرد ذهابهم إلى أوربا وإن بدا لها من أكثرهم تقصيرهم فى أعمالهم ، وافترضت فى كثير غيرهم ممن لم ينالوا شرف الاغتراب الجهل وإن بدا لها فطنتهم فيما يناط بهم ؟

وقلت فى نفسى متى يفهم هؤلاء أن ليس بين التكلف والصلكة كبير فرق ! وأن فى المصريين من سافروا مثلهم فتلقوا العلم فى أوربا ، ثم عادوا إلى وطنهم محتفظين بمظاهر قوميتهم فإن قلدوا غيرهم قلدوهم فى العظائم ، وأخذوا عنهم ما يشرفهم أخذه ، ونبذوا ما يشينهم من سخيف المحاكاة . . .

وساورنى خيال غريب عن أولئك المتكلفين ، وذلك أنهم يعنون أنفسهم موضع السلعة فى السوق ، والسلع الإنجليزية يكتب عليها عادة « صنع فى انجلترة » لتزحم غيرها فى الأسواق ، وهؤلاء يباهى الواحد منهم بأنه — على حد تعبيره — (England man)

(فيه)